مشكلات التاريخ للتربية
عند العرب قبل الإسلام

د. سعيد اسماعيل على

يذهب بعض الناس الى أن تاريخ التربية العربية لم يبدأ الا بظهور الاسلام معتمدين في هذا الرأي على أن العرب كانوا قبله مجموعات متناثرة من القبائل وانهم كانوا أجلافا يستحيل عليهم أن ينتجوا شيئا ذا بال يستحق أن يؤرخ له .

ومن العجيب حقا أن يحمل لواء هذا الرأي أستاذ معروف في الدراسات السامية وهو « رينان » ، اذ كتب في هذا الشان يقول :

« لا مكان لبلاد العرب في تاريخ العالم السياسي والثقافي والديني قبل ذلك الانقلاب المفاجيء الخارق للعادة الذي صار به العرب أمة فاتحة مبدعة . ولم يكن لجزيرة العرب شان في القرون الأولى من الميلاد حين كانت غارقة في دياجير ما قبل التاريخ ولم يظهر بأسها وبسالتها الا بعد القرن السادس من الميلاد » (١) .

ويتصدى أستاذ آخر من الأمة الفرنسية نفسها التي منها (رينان) ، الا وهو « جوستاف لوبون » لهذا الرأي واصفا اياه بالفساد ، ويستند في ذلك الى حجة منطقية لا يستطيع منصف أن يتغاضى عن معقوليتها ، وهي أنه اذا أمكن ظهور حضارة أمة ولغتها فجأة على مسرح التاريخ ، فان هذا لا يكون الا نتيجة نضج بطيء ، فلا يتم تطور الأشخاص والأمم والنظم الا بالتدريج ، واذا ما ظهرت أمة ذات حضارة راقية على مسرح التاريخ ، قلنا أن هذه الحضارة ثمرة ماض طويل ، واذا كنا نجهل هذا التاريخ الآن ، فلا يعني هذا أنه غير موجود (٢) .

واذا كان لرأي لوبون هذا وجاهته ، الا أننا ينبغي أن نضع معه تحفظا هاما فصحيح أن دراسة التاريخ تبين أن « فجائية » الوقائع والأحداث غير مقبولة الا أن هذا لا يعني أن ما جاء به الاسلام كان تطورا طبيعيا

لما كان قائما . ذلك أننا هنا لسنا أمام حدث بشري يصح عليه القانون نفسه ، وانما أمام حدث (الهى) يختلف كلية عما كان قائما والصحيح أن نقول ، أن تلك الحضارة التي أبدعها العرب اذا كانت قد اعتمدت على الاسلام في روحها واتجاهاتها ، فهي تعني كذلك قدرة العرب على الابداع والابتكار وقابليتهم لحمل لواء التمدن والتطور وهذا يؤدي بنا الى القول بأن قوما هذه امكاناتهم التي فجرها الاسلام ، يستحيل عليهم أن يعجزوا عن اتيان أشياء ذات أهمية في التاريخ قبل الاسلام وان اختلفت في روحها وتباينت في اتجاهاتها .

بيد أن دراسة هذا التاريخ بالذات عملية تبلغ درجة عالية من الصعوبة تتطلب الكثير من العناء والجهد حتى لقد قيل بحق أنه ليس في تواريخ الأمم الراقية أسقم من تاريخ العرب قبل الاسلام (٣) . ومن هنا تهيب الكثيرون الخوض فيه لوعورة مسالكه وتناقض الأقوال فيه وترجع صعوبات تاريخ التربية عند العرب قبل الاسلام ومشكلاته الى أمور اجمالها فيما يأتي :

١ – يذهب بعض الناس الى أن من أهم الصعوبات والمشكلات ، طول العهد بهذا التاريخ (٤) بيد أن هذا الرأي لا يصمد كثيرا أمام النقد والتمحيص . ذلك أن الفراعنة أشد ايغالا في القدم من كل تاريخ الأرض . اذ يرجع تاريخهم الثابت المؤكد الى ما قبل القرن الأربعين قبل الميلاد (٥) . هذا عدا تاريخهم الأسطوري الذي يمتد وراء ذلك بعشرات القرون (٦) .

٢ – يذهب البعض الآخر الى أن بعض الصحابة قد نهى عن رواية الشعر الجاهلي أو أخبار الأيام مما أوحى بكره الاسلام لاحياء ذكرى الجاهلية ومحاولة طمس معالمها وتاريخها وحكمهم من ثم عليه باسهامه في طمس تاريخ الجاهلية واطفائه له (٧) .

ويستدلون على تأكيد هذا الرأي بلفت النظر الى أنه في الوقت الذي أهمل فيه العرب تاريخ حياتهم في الجاهلية ، نجد عكس ذلك بعد الاسلام ، فانهم لم يتركوا خبرا من أخباره أو رواية أو واقعة الا ودونوها وفصلوها كأنهم شغلوا بهذا عن ذلك أو لعلهم أرادوا محو مفاخر الجاهلية واقامة مجد الاسلام مكانها ، ولذلك لا تجد لهم كتابا خاصا بتاريخ العرب قبل الاسلام ، واذا ذكروا شيئا من أخبارهم ، فانما يريدون به العبرة والموعظة ، كأخبار عاد وثمود بما تحويه من غضب الله على قوم خالفوا أنبياءه ولذلك رأيتهم يبالغون في تعظيم تلك الأمم ليعظم القصاص الذي وقع عليها حتى

اصبحت أخبارهم أشبه بالخرافات منها بالحقائق ، وأكثر مبالغات العرب في القبائل البائدة ، حتى سبق الى أذهان المحققين من غير المسلمين ، أنها موضوعة ولولا ورود بعضها في القرآن لقال المسلمون ذلك أيضا (٨) ·

لكننا يمكن أن نؤكد أن الذين نهوا عن رواية الشعر الجاهلي او رواية الأيام أو امتنعوا هم أنفسهم عن روايتها ، لم ينهوا ولم يمتنعوا عن روايتها مطلقا ، أي عن رواية جميع أنواع الشعر الجاهلي ، أو أخبار كل الأيام التي وقعت في الجاهلية ، بل نهوا أو امتنعوا عن رواية بعض أبواب الشعر ، وبعض أخبار تلك الأيام ، لما كان يحدثه هذا النوع من الشعر أو يوقعه هذا الباب من رواية الأخبار من شر في النفوس ، ومن فتن قد تجدد تلك العصبيات الخبيثة التي حاربها الاسلام لتمزيقها الشمل وتفريقها الصفوف (٩) ·

٣ ـ تعتمد عملية التأريخ للجاهلية على مادة علمية يستمد جزء كبير منها من أشعار بني اسرائيل ، ومؤلفات اليونانيين ، وتراث الفرس والسريان واللاتين واذا كنا نجد المدونات الاسرائيلية والفارسية غارقة في الخيال ، فكذلك نجد الخيال متراكما على المدونات اليونانية والسريانية ، فالمبالغة في الخيال الواضحة في (الالياذة) اليونانية ، وفي قصة (مغارة الكنز) السريانية ، لا تقل عن مبالغات الفرس عن ملوكهم وأبطالهم وفيما قاله العبرانيون عن دولة أنبياء بني اسرائيل (١٠) لذلك قال المستشرقون ان المواد المستخدمة من القصص اليهودي والمسيحي كانت منذ أمد بعيد ، قد وجدت سبيلها الى التاريخ العربي ، وهو أمر لم يكن في مصلحته تماما ، وكذلك كان أثر الرواية الفارسية فيه سيئا (٢١) ·

وتاكيدا لهذا ، يذهب بعض الباحثين الى أن « كتاب الملوك » (خداي نامه) الفارسي الذي نقل الى العربية ، كان يشتمل في أقدم أجزائه على قصص تتناول أشخاصا خيالية (ميثولوجية) وعلى تأملات كهنوتية ، وخرافات ابستاقية وذكريات عن قصة الاسكندر ، وكثيرا ما كانت النزعة القصصية والبلاغية تطغى على الرواية الصحيحة في الحديث عن ملوك ساسان (١٢) ·

وبالاضافة الى هذا ، فان أخبار الأمم العربية في المدونات الاسرائيلية كان أكثرها محدودا في نطاق ضيق وخاضعا للخصومة التي كانت بين بني اسرائيل في سوريا وفلسطين منذ هجرتهم من مصر · فالأسفار الاسرائيلية لم تتحدث عن كثير من أحقاب التاريخ العربي فهي لم تذكر (الثموديين) ودولتهم في شمالي الحجاز · والأسفار الاسرائيلية عندما تتحدث عن

العرب ، تتحدث عنهم أعداء لدولتهم كافرين بعقيدتها ، فهي لذلك تحرص على ذكر الجوانب المظلمة في حياتهم . ولقد أقبل العرب على النقل من التوراة بدافع الاعتقاد في أن التبديل والتحريف الذي حدث في كتب بني اسرائيل كان محصورا في التأويل ، كما قال ابن عباس « انما بدلوه وحرفوه بالتأويل » (١٣) .

٤ ـ قلة الاهتمام بالتدوين ، فالظاهر أن غالبية أهل الجاهلية لم تكن لهم كتب مدونة في تاريخهم ، ولم تكن عندهم عادة تدوين الحوادث وتسجيل ما يقع لهم في كتب وسجلات ، بل كانوا يتذاكرون أيامهم وأحداثهم وما يقع لهم ، ويحفظون المهم من أمورهم مثل الشعر حفظا . ولما كانت الذاكرة محدودة الطاقة لا تستطيع أن تحمل كل ما تحمل ، ضاع الكثير من الأخبار بتباعد الزمان وبوفاة شهود الحوادث (١٤) .

يضاف الى هذا ، اساءة فهم بعض الأوائل ، ما سمعوه من كراهة التدوين في صدر الاسلام ، مما أدى الى الظن بأن هذا يعني اعدام كل ما هو غير اسلامي من التراث العلمي القديم ، فقد روى مسلم في صحيحه « ولا تكتبوا عني غير القران ومن كتب عني غير القرآن فليمحه » (١٥) .

ومصدر الخطا في الفهم هنا أن هذه النصوص وغيرها تدور حول تدوين الأحاديث النبوية ، واطلاق عنان التدوين للجميع ، في الوقت الذي لم يجمع فيه القرآن ، وفي الزمن الذي كان الناس يدونون في الصحيفة الواحدة الى جانب الآيات القرآنية قصصا (١٦) فاطلاقه يترتب عليه مخاوف لا يأمنها المسلمون على القرآن وبعد أن جمع ووحدت قراءته في مصحف واحد ، كره الصحابة أن يجمع الحديث في كتاب على نحو ما جمع به القرآن فيضاهيْ به ، وأكثر الاعلام كانوا يخافون على عقلية العامة فمن مثله كمثل حاطب ليل ، فحاطب ليل كما يقول (أبو عمر) : ربما ضم أفعى الى حطبه فنهشته (١٧) .

٥ ـ ليس من السهل بقاء العاديات التي تتالف من مواد منزلية وأدوات ضرورية لحياة الانسان مدة طويلة في أراض مكشوفة سهلة ، وفي مناطق صحراوية لا حماية فيها لتلك الأشياء (١٨) . وليس من السهل أيضا احتفاظ مثل هذه التربة بجسد الانسان وبعظام الحيوان أمدا طويلا ، وهي معرضة لحرارة شديدة قاسية ولرياح عاصفة قاسية .

هذا بالاضافة الى عادة قلع المباني القديمة لاستخدام أنقاضها في مبان جديدة ، والاعتداء على الأطلال والآثار والقبور بحثا عن الذهب والأحجار الكريمة والأشياء النفيسة الأخرى . وهذه العادة قديمة جدا ، ربما رافقت

الانسان منذ يوم وجوده ، وكان من نتائجها تلف كثير من الآثار وذهاب معالمها ، فصارت نسيا منسيا (١٩) ٠

كذلك يمكن القول بأن ما كان يحدث من حروب متعددة ، أدى الى تدمير هذه الآثار ، اذ استعمل القادة السياسيون حرق المدن والمواقع والمزارع وقتل السكان بالجملة ، وحتى في غير أوقات الحروب ، كان بعض القادة السياسيين يدأبون على محو كل أثر لمن سبقهم حتى لا تظهر على المسرح من هو أعظم منهم بدافع الحقد والحسد والغيرة ٠

٦ ـ ليس البحث في تاريخ بلد واحد بالأمر السهل على من كتب له حظ من البحث والنظر ، فما بالك بتاريخ أمة عظيمة تباعدت أرجاء بلادها كالأمة العربية ؟ ولذلك رأينا الغربيين لما بلغ العلم هذه الدرجة من الارتقاء والتشعب ، يقسمون التاريخ أقساما كثيرة ، فمن بحث منهم في تاريخ قرن أو قرون من تاريخ أمة ، لا يتطاول الى البحث في دور آخر من أدوارها ، أو من خاض في تاريخ اقليم أو بلد آخر ، ومن اختص بجانب من تاريخ الرومان ، يتعذر عليه معالجة التاريخ الحديث ، ومن ذاقت نفسه أن يتناول في أبحاثه النظر الى حال أمة من أمم الشرق ، لا يجود تاليفا له في تاريخ الغرب (٢٠) ٠

٧ ـ تأثر عملية التاريخ بالألوان الخاصة ، والمؤرخ يحتاج الى كل ما يحتاج اليه القاضي من الشهادات والأسانيد والبيانات ، وقد يعوزه كل أولئك في أكثر الحوادث التي يتصدى لها بالبحث والتقرير ٠ فكل حادثة تاريخية قوامها الأشخاص والأخبار والمصالح والآراء ، ولكل عنصر من هذه العناصر آفة تتطرق اليه بالزغل والارتياب ٠ والأشخاص يحيط بهم الحب والبغض والرغبة والرهبة والظهور والخفاء ، والأخبار يعتورها الصدق والكذب والفهم والجهل والوضوح والغموض ، والمصالح تتفق ولا تتفق وتجاري الحقيقة وتناقضها ، وتصبغ الأشياء عامدة أو غير عامدة بصبغة تلوح لهذا غير ما تلوح لذاك ، والرأي عرضة لاختلاف العلم والنظر والمزاج وكل ما يدخل في تكوين الآراء وتقدير الأحكام (٢١) واذا تأتي للمؤرخ أسباب الحكم على الأعمال الظاهرة ، فقد تعوزه أسباب الحكم على النيات الخفية والبواعث المستورة والعوامل التي يحجبها الانسان عن خلده ويغالط فيها ضميره وهبة تأتي له كل ما يتأتى للقاضي من الشهادات الأساسية والبينات ، فهل يسلم القاضي من الذلل ؟ وهل يأمن الزيغ في الفهم والمحاباة في الهوى وانتشار الأمر عليه في القضايا التي لها خطر وللناس بها اهتمام ، أما سفساف الحوادث ، فسواء أصاب فيها القاضي أو أخطأ فهي أهون من أن يتعلق بها خبر في تاريخ أو مذهب في قضاء (٢٢) ٠

د٠ سعيد اسماعيل علي

الهوامش

١ ـ جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٨٧ .

٢ ـ المرجع السابق .

٣ ـ جرجي زيدان : العرب قبل الاسلام ، دار الهلال ، (د.ت.) ، القاهرة ، ص ١٠٧ .

٤ ـ محمد أسعد طلس : تاريخ الأمة العربية ، عصر الانبثاق ، مكتبة الأندلس بيروت ، ١٩٥٧ ، ص ١٤٢ .

٥ ـ أحمد فخري : مصر الفرعونية ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ٣٧ .

٦ ـ انيدلا مونت ميدوكروفت : هبة النيل ، تاريخ مصر القديمة ، ترجمة علي فخري ، دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة (د.ت.) ، ص ٢٢ .

٧ ـ جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٩ ، ج١ ، ص ١١٠ .

٨ ـ جرجي زيدان : العرب قبل الاسلام ، ص ١٧ .

٩ ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج١ ، ص ١١٠ .

١٠ ـ دائرة المعارف (الاسلامية) مادة (علم التاريخ) ، ج٤ ، ص ٤٩١ .

١١ ـ أمين مدني : التاريخ العربي ومصادره ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧١ ج ٢ ، ص ٢ .

١٢ ـ دائرة المعارف ج٤ ، ص ٤٩٢ .

١٣ ـ عبد الرحمن بن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٥٦ ، م ٢ ، ق ١ ، ص ١١ .

١٤ ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج١ ، ص ١١٨ .

١٥ ـ صحيح مسلم (طبعة الحلبي) ج٤ ، ص ٢٢٩٨ .

١٦ ـ المرجع السابق ص ٥٥ .

١٧ ـ ابن عبد البر : مختصر جامع بيان العلم وفضله ، المكتبة العلمية ، المدينة المنورة ، بدون تاريخ ، ج١ ، ص ٧٥ .

١٨ ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج١ ، ص ٥٢ .

١٩ ـ المرجع السابق . ص ١١٦ .

٢٠ ـ محمد كرد علي : الاسلام والحضارة الغربية ، لجنة التاليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٨ ، ج١ ، ص ٥ .

٢١ ـ عباس محمود العقاد : ساعات بين الكتب ، النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٠ ، ج١ ، ص ١٠٢ .

٢٢ ـ المرجع السابق .